نكهةُ المجاز في «مرثيّـَة النار الأولى»

شيءٌ يطلّـُ الآن من هذي الذرى أحتاجُ دمعَ الأنبياءِ لكي أرى

النصّ للعرّـَاف والتأويلُ لي يتشاكسانِ هناك (قالَ) و(فَسّـَرا)

هذا الشطر (النص للعرّـَاف.. والتأويلُ لي) هو حُجّـَتُنا لتأويل نصوصه في هذا الديوان، حيث إنّـَ هذه النصوص الناضجة على الصعيد الفني نضوجا فاتنا، لا تسلّـِم قطوفها بسهولة للقارئ وإنما تغريه بفتنتها لأنْ يتسلّـَق شجرة كلّـِ نص للوصول إلى قطوفها غير الدانية. هكذا يبذل القارئ قليلا من الجهد الذهني من أجل الوصول إلى المتعة الفنية. ولعلّـَ ما يجمع بين كلّـَ قصائد هذا الديوان هو ذلك التصعيد للدلالة الجمالية ذات الجذور الفلسفية والوجودية، وكأنّـَ محور الديوان هو صناعة الجمال عبر توظيفِ حشدٍ من الدلالات التي تعمل على الطاقة الرمزية الهائلة.

في قصيدة بعنوان (هُمْ) .. يقول شاعرنا المبدع:

أقاموا كهذا النخلِ.. كالغيمِ طَوّـَفوا مداراتُهُمْ في الليلِ: جوعٌ ومصحفُ!

تعالَ إلى الألواحِ نلمسُ سِرّـَهُمْ

فقد تكشفُ الألواحُ ما ليس يُكشفُ

قديماً مشوا والأرضُ تُثقلُ خطوَهُمْ

فلَمّـَا أحسّـُوا بالسماءِ تخفّـَفوا

رأوا سدرة العرفان في السجنِ مثلما

رأى سدرة العرفانِ في السجن يوسفُ

وفي قصيدة أخرى بعنوان (خاتمةٌ لفاتحة الطريق).. يقول:

يقولُ لي عمّـُنا (العطّـَارُ): حكمتُنا

من (منطق الطير) لا من منطق الورقِ

يقولُ لي (عمرُ الخيّـَام) في ثقةٍ

بغير خمرتِكَ السوداءِ لا تثقِ

تقولُ لي جُبّـَةُ الحلاّـَجِ: يا ولدي

رأى المُحِبّـُ جلالَ اللهِ حين شُقي

يقولُ لي هدهدٌ قد عاد من سبأٍ:

مَنْ لم يذقْ وحشة الأسفارِ لم يذقِ

ثمّة آصرةٌ تربط بين هذه القصائد المنتشرة في ثنايا الديوان وبين الشعر الصوفي القديم.. هذه الآصرة تتمثّل في اشتراكهما معًا في لغةٍ عاليةٍ تحتوي على قاموس كامل مرصّع بالمفردات الصوفية وتأويلاتها، فمن طبيعة الشعر الصوفي أن تكون معانيه مؤجّلة وربما مفتوحة أيضا على آفاق أرحب للتأويل وذلك لأنّ هذا الشعر عبارة عن معادل فنّـِي للحياة الصوفية، وليس مجرّد تدريب للحواسّ يؤهّلها لاستيعاب جماليات لغوية لا تنتمي للواقع بأيّ صلة. ربّـَما يكون الشاعر (محمد عبدالباري) غارقا في الثقافة الصوفية إلى درجة الاستشراق بها، لذلك نكاد نراه يتمشّـَى في قصائده كائنا شفّـَافا، ونكاد نلمسُ معاناته ومكابدته في نبراتِ أصواتنا حينما ننشدُ مرتّـِلين هذه القصائد. إنّـَ عمق الإحساس الفني بالمعاني الصوفيّـَة لدى الشاعر (محمد عبدالباري) هو الذي منحه القدرة الفائقة على مخاطبة الوجدان عبر هذه القصائد أكثر من مخاطبة الذهن، حيث جاء شعرُهُ شاهقا بالرؤيا، مبطّـَنا بجوهر الحبّ، مغلّـَفا برموز العرفان، شاردا في متاهات الأسرار التي طالما دخلها السالكون ولم يعودوا..